الدكتور
سامي عفيفي حجازي



الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الذي أنعم على المؤمنين بنعمة الإيمان ، وبنعمة القرآن ، وبنعمة السلوك المستقيم والصلاة والسلام على رسولنا الصادق الأمين والمبعوث رحمة وهداية للناس أجمعين ، الذي علم الأمة السلوك الذي يرقى بالمجتمع ، ويصل الخلق بالخالق .

أما بعـــد

فإن لله نعماً تطالع الناس فى صباحهم ومساءهم منها المستور ومنها المنظور قال تعالى « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .

ومن هذه النعم نعمة الوجود والحياة . وقد أدرك المخلصون هذه المعانى فسلكوا سبل الهـــداية ، والتزموا بالمنهج السوى الذى رأوا معالمه بارزة فى سلوك رسول الهداية سيدنا محمد — صلوات ربى وسلامه عليه — قال الله تعالى فى سورة الأحزاب « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

إن سلوك الأولياء والصالحين ، وتنسك المتنسكين وضع الأمة الإسلامية أمام معالم قويمة ، وعلامات مضيئة ، دفعت بأبناء الأمة إلى الوعى الإيمانى ، الذى يؤهل الأمة إلى الصدق ، وكل ما من شأنه أن يأخذ بالأمة إلى مراقى الفلاح والسلوك المستقيم .

ومن هنا فلقد حظى التصوف الإسلامى والسلوك الصوفى بدراسات متعددة ، تنوعت مناهجها وأساليبها واختلط فيها المدح بالقدح ، ومع هذا وذاك فما زال الاهتمام به متجدداً ، والبحث حول قضاياه ما يزال متصلا ،

ولم يعد ذلك مقصوراً على الدارسين المتخصصين من المسلمين والمستشرقين فقط ، وإنما هو يجذب إليه القارىء العادى الذى أصبح يحس بوطأة المذاهب المادية والعبثية المعاصرة على نفسه ، وبحاجته إلى ما يرضى عقله ويشبع روحه ، ويعيد إليه ثقته بنفسه ، وطمأنينته التى بدأ يفقدها فى زحمة الحياة المادية ، وما فيها من ألوان الصراع العقائدى المختلفة ، وبهذا يحقق معنى إنسانيته ومن ثم فإن دوافع قوية متجددة ومتنوعة تدعونا إلى أن نعيد النظر ، ونقلب الرأى ، ونتابع البحث فى قضايا التصوف الإسلامى والسلوك الصوفى ، وهذه وتلك بعضها يرجع إما إلى طبيعة الموضوع وإما إلى طبيعة نفوسنا وإما إلى ظروف العصر من حولنا هذا من جانب ومن جانب آخر يرجع إلى اعتبارات دينية وتاريخية ...

تعنى المسلم بوجه خاص ، ولكنها جميعا تمثل حاجة إدراكية ومعنوية وروحية لا يسعنا إهمالها بحال(١) .

ولذا شاركت بهذه الدراسة « التصوف الإسلامى وتنمية وعى الأمة فى مؤتمر ملتقى التصوف الإسلامى العالمى الذى عقد بطرابلس — ليبيا فى الفترة من ١٦ — ١٨ سبتمبر ١٩٩٥ م .

وإن مجتمعاتنا الإسلامية فى أشد الحاجة إلى هذه البحوث والدراسات التى تربط الأمة بأصالتها وتوضح لها المعالم ، وتضىء لها الطريق ، خاصة ونحن نعبر إلى مجد الأسلاف ، ولذا كان لابد لنا من رؤية سلوكية سليمة تربط معاصرتنا بالأصالة الراسخة .

وإن التصوف الإسلامى والسلوك الصوفى له دوره الفعال فى يقظة وعى الأمة ودفعها إلى تزكية النفس بتجلية ما بنى عليه بناء الإسلام فى

---

(١) راجع الأستاذ الدكتور حسن عبد اللطيف فصول فى التصوف ص ٦ بتصرف مع تقديم وتأخير ط ١٩٩١ م .

ذات المسلم قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » .

وهـــذه هى الغاية الكبرى التى تدفع بالفرد والمجتمع لتنمية وعى الأمة .

والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

إعـــداد

د/سامى عفيفى حجازى

القاهرة — مدينة نصر

غرة شعبان ١٤١٦ هـ

يناير ١٩٩٦ م

التصوف الإسلامى وماهيته

إن أمتنا الإسلامية وهى تسير بمشيئة الله تعالى إلى مجد مشرق لابد وأن تعتمد الأصالة كأسلوب تربوى يغطى مجالات الحياة .

والأصالة التى تربط الأمة الإسلامية بماض عظيم وجدت فى رياض التصوف الإسلامى والسلوك الصوفى ، ولهذا كان لابد أن ندرك أن وعى الأمة لابد وأن ينطلق من أصالتها الإيمانية السلوكية . وهذه المعايير والضوابط التى انطلقت من السلوك الصوفى تقوم على ثوابت راسخة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسلوك الصحابة والتابعين والعلماء العاملين ، وأن الأمة الإسلامية وهى تواجه التحديات المعاصرة وتكالب الأعداء على مجتمعاتنا الإسلامية جدير بها أن تستعيد السلوك الصوفى كمعيار يحقق للأمة ماتصبو إليه فى عالم كله صراع .

* * *

وبداية يحسن أن ندرك أن التصوف الإسلامى من أفق جوانب الحياة الإيمانية فى الإسلام باعتباره ترجمة لمقام الإحسان المؤسس على العقيدة والشريعة ، ولاشك فى هذا ، لأن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد ، صانوا بها عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة : من توحيد ليس فيه تمثيل ، ولا تعطيل ، وعرفوا ما هو حق القدم ، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العـــدم . . . وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ، ولائح الشواهد[1] .

---

(١) الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيرى الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٢٨، ٢٩ تحقيق الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود — رضى الله عنه — والدكتور محمود بن الشريف ط دار حسان ١٩٧٢ م .

كما قال أبو محمد الجريري «من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلت به قدم الغرور فى مهواة من التلف»[1] .

يريد بذلك : أن من ركن إلى التقليد ، ولم يتأمل دلائل التوحيد سقط عن سنن النجاة ووقع فى أسر الهلاك ، ومن تأمل ألفاظهم وتصفح كلامهم وجـــد فى مجموع أقاويلهم ومتفرقاتهم أن القوم لم يقصروا فى التحقيق عن شأو ، ولم يعرجوا فى الطلب على تقصير»[2] .

ثم يذكر الإمام القشيري جملا من متفرقات كلامهم فيما يتعلق بمسائل الأصول ، يحرر بعدها ما يحتاج إليه فى الاعتقاد على وجه الاختصار .

إذ من المتفق عليه أن بناء الإسلام كفطرة فى نفوس المكلفين يقوم على دائرة التكاليف الإيمانية ودائرة التكاليف العملية حيث تشتمل أوامر الشريعة الإسلامية فى جملتها على ما يتعلق بأقوال وأفعال : بعضها يتعلق بالاعتقادات القلبية كالإيمان بالله تعالى والإيمان باليوم الآخر ، وبعضها يتعلق بالتكاليف العملية كالصلاة والزكاة ...

كما قال شارح العقائد النسفية «اعلم أن الأحكام الشرعية منها ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية وعملية ، ومنها ما يتعلق بالاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية»[3] وكما يقول ابن الجوزى : تفكرت يوما فى التكليف فرأيته ينقسم إلى سهل وصعب فأما السهل فهو أعمال الجوارح إلا أن بعضا منها هو أصعب من بعض ، فالوضوء والصلاة أسهل من الصوم ، والصوم ربما كان عند قوم أسهل من الزكاة .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق للدكتور عبد الحليم محمود بالاشتراك .
(٣) العلامة سعد الدين التفتازانى ، شرح العقائد النسفية ص ٤ ط باكستان مكتبة خير كثير .

وأما الصعب فيتفاوت ، فبعضها أصعب من بعض . فمن المستصعب النظر والاستدلال الموصلان إلى معرفة الخالق ، فهذا صعب عند من غلبت عليه أمور الحس سهل عند أهل العقل ، ومن المستصعب غلبة الهوى ، وقهر النفوس ، وكف إلف الطبع عن التصرف فيما يؤثره ، وكل هذا يسهل على العاقل النظر فى ثوابه ورجاء عاقبته »[1] .

ومن هنا فالذى يقرأ فقه الصحابة والتابعين يجد أنهم أفقه الخلق لروح الإسلام ومقاصده كما فى قول الحق تبارك وتعالى : « قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون »[2] وكما فى قول الرسول — ﷺ — « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين »[3] .

والفقه هنا كما يدل عليه القرآن والسنة فقهان : فقه فى الكون ، وفقه فى الدين .

فالأول : يعنى الفهم عن الله فيما خلق .

والثانى : يعنى الفهم عن الله فيما شرع .

الفقه فى الكون يراد به الفقه لآيات الله فى الأنفس والآفاق ، ولسننه التى لا تتبدل فى الكون والإنسان ، كما يدل على ذلك الكتاب والسنة .

والفقه فى الدين هنا يعنى المعرفة التى نقف عليها أيضاً من ينابيعه الصافية . هذا من جانب ، ومن جانب آخر نقف على أن أوامر الشريعة الإسلامية

---

(١) الإمام عبد الرحمن بن الجوزى صيد الخاطر ص ٢٠ ضبط وتحقيق الشيخ محمد الغزالى ط الثانية ١٩٨٠ م

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٨

(٣) متفق عليه من حديث معاوية .

تنقسم فى جملتها إلى ما يتعلق بأقوال ظاهرة كالصوم والصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والسعى فى مصالح العباد ... وإلى ما يتعلق بالنفس والقلب كالإخلاص والتواضع والحب فى الله والبغض فيه ، والخوف من وعيد الله تعالى والأمل فى مثوبته ورضوانه .

وكذلك النواهى : تنقسم فى جملتها أيضاً إلى ما يتعلق بظاهر الأقوال والأفعال كالنهى عن القتل بغير حق ، والسرقة والغيبة والنميمة .

وإلى ما يتعلق بأعماق النفس أو القلب كالنهى عن الكبر والعجب ، والحقد والتعلق بزخارف الدنيا وأهواء النفوس .

ومن المتفق عليه ايضاً أن ما يتلبس به المسلم من الطاعات الظاهرة المتعلقة بالأقوال والأفعال لا يستقيم على حالة من القبول عند الله تعالى ما لم ينهض ويرتكز على تلك الطاعات الأخرى المتعلقة بطوايا النفس والقلب .

وهذا الفهم الدين نادت به أحوال الصوفية قبل أن يدرك فى مقالهم . وفى هذا المقام يقول أبو القاسم القشيرى :

« جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره ... صفاهم من كدورات البشرية[1] ، ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ، ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية[2] .

---

(١) أى خلصهم وطهرهم من حظوظ أنفسهم ، حيث وفقهم للمجاهدة والرياضة الدائمة .

(٢) أى منفذ تصرفاته تعالى فيهم وفى غيرهم من العطاء والمنع والإسعاد والإضلال .

فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات تكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ثم رجعوا إلى الله تعالى بصدق الافتقار، ونعت الانكسار، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد، ويختار ما يشاء من العبيد »(١).

والعبودية هي الوفاء بالعهود وحفظ الحدود والرضا بالموجود والصبر على المفقود.

وفوق كل ما تقدم إذا قيل: الصوفية من هم، صفهم لنا فإن السراج الطوسي حينما سئل عن ذلك قال: هم العلماء بالله وبأحكام الله، العاملون بما علمهم الله تعالى، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل، الواجدون بما تحققوا، الفانون بما وجدوا لأن كل واجد قد أفنى بما وجد »(٢).

وفي هذا بيان لما يشتمل عليه التصوف الإسلامي وأنه يتمثل في: العلم والعمل، والتحقق والوجد، والفناء: أي العلم بما يتحقق بالعقيدة والشريعة، والعمل بمقتضى هذا العلم: أي التطبيق العملي لأحكام الشريعة في الواقع، ولا يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل والتحقق بما استعملهم الله فيه من العلم، أي الذوق لما كشف لهم من أسرار الشريعة والتمكن في مقام العرفان، والوجد بما تحققوا فيه أي من المكاشفات والمشاهدات

---

(١) المرجع السابق للإمام القشيري — تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود — رضي الله عنه —.

(٢) الإمام أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، اللمع ص ١٢ تحقيق الدكتور / عبد الحليم محمود — رضي الله عنه — والأستاذ طه عبد الباقي سرور.

والفناء في ذلك الوجد ، أي الاستغراق في تلكم المشاهدات بعدم الالتفات إلى شيء سوى الحق تبارك وتعالى .

التصوف ظاهرة إنسانية :

إن المتأمل التراث الصوفي يقف على أن التصوف كنهج حياة ظاهرة إنسانية لم يخل عنها دين من الأديان ولا حضارة من الحضارات ، وفي هذا المقام يقول الدكتور دراز : « إن قضية التدين في جوهرها لم تتأخر عن نشأة الإنسان »[١] ، كما يشير إلى هذا أحد الباحثين الغربيين فيقول : « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية .

وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية »[٢] . فحياة الجنس البشري المصورة لنا في التاريخ في عمره المديد خير صورة حية لأثر العقيدة الدينية ، حيث تمتد جذور العقيدة في أعماق التاريخ امتداد الإنسان نفسه ، فقد نشأت معه ، وارتبط وجودها بوجوده ، فهي خاصة من خواصه ولازمة من لوازمه ، وذلك هو ماقرره الفيلسوف اجوست سباتيه ، في كتابه فلسفة الدين حين يقول : لماذا أنا متدين ؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا وأراني مشوقا للإجابة عنه بهذا الجواب : أنا متدين لأني لا أستطيع غير ذلك ، فالتدين لازم معنوي من لوازم ذاتي[٣] .

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز — كتاب الدين ص ٨٤ ط السعادة ١٩٦٢ م .

(٢) نقلا عن المرجع السابق للدكتور محمد عبد الله دراز .

(٣) الأستاذ محمد عبد القادر العماوي هـــذا هو الإسلام ص ٦٠ ط الثالثة ١٩٧٣ م .

ولذا كان من العناية الإلهية أن تكون مسألة البحث عن خالق الكون والاعتقاد به مايهم جميع الأفراد والشعوب ، من دون اختصاص بجماعة ، أو بفرد دون فرد ، وذلك لأن القضايا المطروحة فى حياة الإنسان على نوعين :

— نوع يختص بطائفة معينة من الناس كالمسائل الفيزياوية والكيماوية ...

— ونوع لا يختص بطائفة معينة بل يهم جميع أبناء البشر ، ويهم جميع الناس دون استثناء ، ومسألة الاعتقاد بالله الخالق لهذا الكون هى من النوع الثانى ، إذ يسعى كل إنسان مهما كان لونه وجنسه إلى أن يعرف :

من أين جاء ؟ ... ولماذا جاء ؟

وإلى أين يذهب ؟

والأبحاث الاعتقادية مهمتها الإجابة عن هذه التساؤلات المطروحة بإلحاح على أبناء البشر بلا استثناء ، وذلك لأن العقيدة فطرة عامة لكل إنسان[١] . يقول الماوردى : « الدين أقوى قاعدة الدنيا واستقامتها وأجدى الأمور نفعاً فى انتظامها وسلامتها ، لذلك لم يخل الله تعالى خلقه منذ فطرهم عقلاء على تكليف شرع واعتقاد دين ينقادون لحكمه لئلا تختلف بينهم الآراء ، ويستسلمون لأمره فلا تتصرف بهم الأهواء»[٢] .

---

(١) الأستاذ جعفر الهادى فى مؤلفه — الله خالق الكون — دراسة علمية حديثة للمناهج والنظريات المختلفة حول نشأة الكون ومسألة الخالق ص٦ ط ١٤٠٥ هـ .

(٢) الماوردى أدب الدنيا والدين ص ١١٣ ط دار الشعب ١٩٧٩ م

ويتضح ذلك بنظرة إلى تاريخ التصوف بل إلى تاريخ الحياة الروحية للإنسانية . هذا هو الإنسان المثقف وغيره كل منهم ينظر إلى ما فى الكون بغية الوقوف على أسرار الكون والوجود .

من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ وماذلك إلا لأن الحياة الروحية أيضا ظاهرة من الظواهر الإنسانية التى يمتاز بها الإنسان عن سائر المخلوقات ، وهذه الظاهرة لم تنشأ صدفة ، ولم تكن أيضاً مجرد اختلاق من الإنسان كاختلاق بعض العادات والمصنوعات ، بل إن هذه الظاهرة كانت لها منابع أساسية نشأت منها كما كان هناك دوافع طبيعية دفعت الإنسان إلى هذه الحياة الروحية وكان أم تلك المنابع المنبع الإنسانى والمنبع السماوى كما توقفنا على هذا وذاك دراسة التاريخ .

بيان للمنهج الصوفى :

إن التصوف الإسلامى كما تبين فيما تقدم ينطلق من المجاهدات والرياضات وعليه فقد خص الصوفية بمقامات واصطلاحات تعبر عن جانب وجدانى قلبى يهدف فى نهايته إلى اليقين القلبى حيث عالم الأحوال والمكاشفات ، والإمام الغزالى — رضى الله عنه — بعد أن وجد فى التصوف ضالته المنشودة وارتمى فى أحضانه ، بين لنا طبيعة المنهج الصوفى بقوله :

« ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتى على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله وتحليته بذكر الله » .

ثم بين لنا الإمام الغزالى أن منهج الصوفية يقدم الجانب العملى على

الجانب النظرى فقال : اعلم أن جانب العمل متفق عليه ، وأنه مقصود لمحو الصفات الردية وتطهير النفس من الأخلاق السيئة ، ولكن جانب العلم مختلف فيه ، وتباين فيه طرق الصوفية طرق النظار من أهل العلم ، فإن الصوفية لم يحرصوا على تحصيل العلوم ودراستها وتحصيل ما صنفه المصنفون فى البحث من حقائق الأمور ، بل قالوا :

«الطريق تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها والإقبال بكل الهمة على الله تعالى ، وعندئذ تفيض عليه الرحمة وتنكشف له أسرار الملكوت ، وتظهر له الحقائق .. ثم ينقطع اختياره فلا يبق له إلا الانتظار لما يظهر من فتوح ظهر مثلها للأولياء .. وهو بعض مايظهر للأنبياء .. فهذا منهج الصوفية»[1] .

لقد سقنا كلام الغزالى مع طوله لأنه خير ما يوضح المنهج الصوفى ولإيضاح الأسلوب الذى عرض به هذا الموضوع لدى الإمام الغزالى ، فإنه لايحتاج من الباحث إضافة إيضاح وبناء عليه : فإن العمل وحده من الممكن أن يصل بالإنسان إلى درجة المعرفة الحدسية ، ولكى لايساء الفهم ويظن ظان أن الصوفية قللوا من مكانة العلم ودراسته ، فإن الإمام الغزالى ألقى الضوء على هذا بقوله : الأولى بأكثر الخلق الاشتغال بالعمل والاقتصار مع العلم على القـــدر الذى يعرف به العمل ، فإن الأكثر لاينتبهون لهذا الأمر فى عنفوان الشباب وإن تنبه فى عنفوان الشباب

---

(١) الإمام الغزالى / ميزان العمل ص ٤٥ — ٤٦ ، مكتبة الجندى بالحسين سنة ١٩٧٣ م .

وراجع الإمام الغزالى المنقذ من الضلال مع أبحاث فى التصوف بقلم الإمام الدكتور عبد الحليم محمود — رضى الله عنه — ص ١٢٦ ط السادسة ١٩٦٨ م .

نظر إلى طبعه وذكائه فإن علم أنه لا يستعد لفهم الحقائق العقلية الدقيقة وجب عليه أن يشتغل بالعمل »[١] .

من هذا استبان أن المنهج الصوفى لا يرفض العلم، والتعلم، ولكن فقط يؤخر العلم الذى يبعد تحصيله الإنسان عن الممارسة العملية للطرق الموصلة إلى الله تعالى، وإن قضية اقتناء الفضائل النظرية والأخلاق العملية، إنما ترجع أساساً إلى اختلاف الناس فى قوى الفهم والإدراك، وفوق هذا وذاك، فإن المنهج الصوفى يرسم الطرق لعبادة الله تعالى لا طمعا فى جنة ولا خوفا من نار، وإنما حبا فى الذات الإلهية، حتى إن مشايخ الصوفية صرحوا ولم يتحاشوا وقالوا: من يعبد الله لطلب الجنة، أو الحذر من النار فهو لئيم، وإنما مطلب القاصدين إلى الله أمر أشرف من هذا »[٢].

وخلاصة القول فى المنهج الصوفى ماقاله الإمام الجنيد — رحمه الله: « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع، وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات »[٣] .

بين المنهج العقلى والمنهج الذوقى :

إن الكلام حول المنهج الصوفى يستحضر فى الذهن التفرقة بينه وبين المنهج العقلى .

والإمام الغزالى — الذى اخترناه ممثلا للصوفية فى هذا المقام — بين لنا

---

(١) الإمام الغزالى ميزان العمل ص٤٦ وما بعدها وراجع المنقذ من الضلال للدكتور عبد الحليم محمود — رضى الله عنه — .

(٢) المرجع السابق .

(٣) راجع دكتور إبراهيم بيومى مدكور فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق ص٤٥ ط دار المعارف بالقاهرة .

أن محور التفرقة بين المنهجين يتعلق بالجانب العلمي تقديماً وتأخيراً ، فقال بالنسبة للجانب العملي : « اعلم أن جانب العمل متفق عليه .. » .

وقال بالنسبة للجانب العلمي : « ولكن جانب العلم تختلف فيه وتباين فيه طرق الصوفية النظار من أهل العلم ، ومما يجدر بالانتباه إليه — هنا أيضا — أن الفرق بين المنهجين : الذوقي والعقلي ، يتضح في نهاية المنهج أكثر من بدايته .. ذلك : « أن الفكر إنما يهدف مهما كان منهجه إلى كشف الحقائق . صاحب الذوق لا ينكر العقل ولكن يحدد للعقل مجاله ، وحدوده ، ونشاطه ، ثم يرتفع عن ذلك بطريق الرياضة والمجاهدة حتى يحظى بالعلوم الوهبية التي مدارها القلب »[1] ، فنهاية الطريق لدى الصوفية تنال نتيجتها بالمعرفة الحدسية .

ويقول الإمام الغزالي في هذا : « فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق ، والحال وتبدل الصفات .. فعلمت يقينا أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال[2] وعليه فإن الفرق بين هذين المنهجين لا يتمثل في رفض أحدهما للآخر ، كلا . وإنما في تقديم الجانب العملي على الجانب العلمي من ناحية .. وفي وسيلة الإدراك من ناحية أخرى[3] .

(١) راجع دكتور حسن محمد الشرقاوي الشريعة والحقيقة ص٤٤ ط الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٧٦ م .

(٢) الإمام الغزالي المنقذ من الضلال مع أبحاث في التصوف للدكتور عبد الحليم محمود — رضي الله عنه — ط السادسة ١٩٦٨

(٣) ومعنى ذلك أنهم انطلقوا من فهمهم للأساس العملي في السلوك حيث إن النظر المجرد ليس له تقدير حقيقي إلا بمقدار ما يقدم للعمل ، وقد استقوا هذا الاتجاه من كتاب الله وسنة رسوله — ﷺ — وذلك واضح في آيات الفرائض والعقائد والأخلاق ، فالعقيدة أصل يدفع إلى الشريعة ، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة والأخلاق ثمرة لها .

ولذا فالتصوف منهج المحققين . وهذا يدعونا لقراءة التراث الصوفى فى ضوء البيان للحقائق والمسلمات .

أى أنه مع أن التصوف ظاهرة إنسانية كما تبين فيما تقدم لم يخل عنه دين من الأديان ولا حضارة من الحضارات حيث تتواصل الحضارات الإنسانية فى فكرها المتتالى ، ويفيد اللاحق فيها من السابق ، لكن هذه الإفادة تتوقف على منهج قراءة أهل التراث لتراثهم . فكلما كانت القراءة وفق منهاج كهذا كانت إمكانية توظيف هذا التراث للحاضر أيسر وأخصب . والسلوك الصوفى المنبثق من التجربة الصوفية لدى المسلمين جزء من تراثنا الإسلامى . وفى هذا المقام يرد تساؤل يسأل فيه الكثيرون عن السبب فى عدم ظهور الدعوة إلى التصوف فى العصر الأول أى بعد عصر الصحابة والتابعين ، وفى عدم تسميتهم صوفيين ؟

والجواب عن هذا أنهم رضوان الله عليهم كانوا بحكم شرف صحبة الرسول — ﷺ — والاقتداء به أهل ورع وتقوى وأرباب مجاهدة وفناء فى حب الله ورسوله ، وكان شرف الصحبة والانتماء إليها أفضل وأشرف من جميع ما يسمى به .

والأصل فى التصوف العكوف على العبادة ومراقبة الله تبارك وتعالى بالإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، وكان هذا عاماً فى الصحابة والسلف .

والمتأمل للتصوف الإسلامى يدرك أنه مر بأطوار ومراحل .

ومن هنا فقضية التصوف الإسلامى وتنمية وعى الأمة تتوقف على إيقاظ مسلمات وضوابط القراءة المنهجية للتراث الصوفى حيث أسىء فهم التصوف الإسلامى بقدر يقابل أثره الفكرى والسلوكى فى حياة الجنس البشرى المصورة لنا فى التاريخ وضرب هذا الفهم السيء حاجزا بين هذا

التراث واستفادة الإنسان المعاصر منه . ليس هذا فحسب بل وحل كثيرا من مشكلات العصر المادية .

ولأن قراءة التصوف الإسلامى لن تتوقف عنـــد قراءة هؤلاء أو أولئك الذين قرؤوه ، ولأننا فى مرحلة بحثنا عن تنمية وعى الفرد والمجتمع من خلال تأصيل حياتنا الفكرية والسلوكية وربطها بأصولها التى تدفع لإدراك الواقع واستشراف المستقبل .

أقول لهذه الأسباب وغيرها رأيت أن أقدم لقراءة التراث الصوفى لدى المسلمين وأقصـد بهم من يقـدرون على الإفادة من الماضى للحاضر وما ذلك إلا لأن الماضى هو السمة التى تصنع الحاضر والمستقبل .

أقدم لهم ماينبغى أن نقرأ التصوف فى ضوئه ، وما ينبغى أن نلتزم به فى القراءة من ضوابط بإيقاظ الوعى الإيمانى لعقيـدة الفطرة والتوحيـد .

ومن هنا ينبغى أن يقرأ التراث الصوفى فى ضوء الحقائق التالية :

حقائق لقراءة التراث الصوفى :

* الحقيقـة الأولى : أن الماضى العقدى هو السمة التى تصنع الحاضر والمستقبل ، بما يضاف إليها من تجربة ومجاهدة مبنية على العلم والعمل ، ولكنها مهما تصقل بالتجربة والمعاناة ، ومهما تصبح مُوفورة العطاء ، فإنها تظل منسوبة إلى الماضى صادرة عنه .

ومن هنا تحرص الأمم على ماضيها وتعتز به ، إذا كان قائما على أسس وقواعد صحيحة وكانه شهادة على أصالتها الإيمانية .

والأمة التى لاتصل ماضيها بحاضرها أمة تشعر باليتم والضياع ، وتعيش متحيرة بين التيارات يقتنصها هذا ليسلمها إلى ذاك حتى تضل الطريق .

ولهذا وذاك كان حرص الأمم على تراثها ، تأخذ منه خيط البداية حتى لاتضل الطريق .

● الحقيقة الثانية : الحاجة إلى تنمية الطاقة الروحيـة لدى الإنسان لأن الحياة الروحية ظاهرة من الظواهر الإنسانية التى يمتاز بها الإنسان عن الحيوان ، وهذه الظاهرة لم تنشأ صدفة ، ولم تكن أيضاً مجرد اختلاق من الإنسان كما اختلق بعض العادات والمصنوعات

ولقد فسرت الأديان تلك الحقيقة بالروح التى نفخ الله بها فى الإنسان عندما خلقه . قال تعالى : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين[1] » وقال تعالى : « ثم سواه ونفخ فيه من روحه[2] » .

وقد ترتب على وجود هذه الحقيقة أن اهتمت مدارس التربيـة بالجانب الروحى فى الإنسان وطالبت بأن يأخذ حقه فى المناهج كما يعنى بالجانب العقلى والجانب الجسدى تماما بتمام ولذا وجدنا من يقول : إننا نعيش جميعاً فى عالمين : فى العالم المادى الذى يتغير فى كل عصر بتقـدم الحضارة المادية ، وفى عالم روحى لا تستطيع العلوم من دونه أن تؤمن بالحق ... أو يكون للصلاح أى معنى ، وهذا العالم الروحى هو عالم القيم . ولو أننا ضحينا به على مذبح العلوم ، أو أى شىء آخر لكان فى ذلك

---

(١) سورة الحجر الآية ٢٩ .

(٢) سورة السجدة الآية ٩ .

فلا كنا، مثلنا في ذلك كمثل من يحتنف الفيتامينات من طعامه [1] .

ولذا يفرق الصوفية بين النفس والروح بل ويشيرون إلى أن النفس تمثل الإنسان بما هو كائن وأن الروح تمثله بما ينبغي أن يكون عليه وبالروح اكتسب الإنسان هذه الكرامة التي من أجلها نال الخلافة على الأرض .

لذا فالأمر لايحتاج إلى دليل .

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

• الحقيقة الثالثة : تصور الصوفية لحقيقة السلوك :

— إن إرادة المريد في المنهج الصوفي هي بدء الطريق إلى الله وأول إرادة المريد إرادة الحق .

وأما الحرية فإنها تكون في التخلص من رق المخلوقات ، وحقيقتها في كمال العبودية لله تعالى ، فاختيار السلوك الصوفي لابد أن يكون صادراً عن الإرادة الحرة ، وعلى قدر الإرادة تكون قوة الإنسان .

— بتعويده القيام بالأعمال الصالحة ومصارعة الأهواء وشغل أوقات الفراغ بالمباح سواء أكان ذلك عملا أم جهاداً أم تسلية لاشبهة فيها .

— وبدوام التطهير بالعبادات للوقوف أمام الأهواء وكسر حدتها .

وهذا أساس بناء الإسلام بحيث إذا افتقرت أحكام الشريعة إلى الأساس الخلقي كانت صورة لا روح فيها وهيكلا فارغاً من المضمون .

ولذا نرى الإسلام يشرب كل تشريعاته المعنى الخلقي .

---

(١) راجع التربية لعالم حائر ص ٤٦ ترجمة وديع الضبع نقلا عن فلسفة الحياة الروحية للدكتور مقداد يلجن ص ٥٢ — ط دار الشروق ١٩٨٥ م .

وعلى هذا فلا غرابة أن يقال عن الصوفية إنهم آثروا المفهوم الدينى للإيمان بمعان خلقية تتضح فى نظرتهم الشمولية للأخلاق : إذ يربطونها بالعقيدة أولا ثم يطبقونها على كل المجالات : عبادات ، ومعاملات ، وآداب حياة فالصوفية فى هذا البناء الخلقى إشارات من واقع أقوالهم ، وليس هناك وضوح أوضح من ذلك الدلالة على عناية أصحاب السلوك الصوفى بالأخلاق والسلوك حيث إنهم ربطوا العلم بالعمل والخلق بالسلوك .

وكل هذا يبين لنا إيجابية التصوف الإسلامى كأخلاق دينية، ولقد شهد بهذا كثير ممن تعتبر شهاداتهم ذات قيمة . فهذا ابن القيم الجوزية يقول: الدين كله خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الدين وكذلك التصوف .

قال أبو بكر الكتانى : التصوف هو الخلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى التصوف(١) .

ه الحقيقة الرابعة : التصوف الإسلامى علم الأخلاق الإسلامية :

الدارس للتصوف الإسلامى يدرك أن رجاله قد اهتموا بالنفس الإنسانية اهتماما كبيرا وعنوا بأخلاقها عناية عظيمة . ويقرر هذه الحقيقة صاحب المدخل إلى التصوف الإسلامى فيقول : لقد رسم لنا الإسلام طريقة التحقق بالكمال الخلقى الذى دعا إليه ، فأمرنا بجهاد النفس بتخليتها

---

(١) الإمام ابن القيم الجوزية مدارج السالكين ج٢ ص٣٠٧ وراجع دكتور محمد كمال جعفر من التراث الصوفى لسهل بن عبد الله التسترى ج١ ص ٤١٠ وراجع دائرة المعارف الإسلامية ج٥ ص ٢٨٠ ، ٢٨٤ وراجع أبو الفرج بن الجوزى تلبيس ابليس ص ١٥٨

عن مذموم الأخلاق ، وتحليتها بأضدادها من الأخلاق المحمودة[١] .

فأساس التصوف هو تربية النفس والتحلي بالخلق الطيب الذى ينفرد به الإنسان ويتميز به على غيره فى الحياة .

ومن هنا اهتم القوم بالأخلاق بل لقد جعلوا الأخلاق فى مناهجهم هى العماد والسند وهى عمود أمرهم كله ، بحيث لو رفعت كلمة التصوف ووضعت بدلها كلمة الأخلاق لما فارقت الحقيقة ولما جانبت الواقع فى قليل أو كثير ، لأن العمدة فى التصوف على مجاهدة النفس وتطهيرها ، وتحليتها بكل جمال وكمال وهذا جماع مكارم الأخلاق .

فالتصوف الإسلامى فى الحقيقة هو الأخلاق الدينية الممثلة لروح الإسلام وثمرة جماع تشريعاته

ولهذا فلقد كان التصوف كعلم للأخلاق الإسلامية من الخصائص الخلقية وعنايته بأمرها عناية شاملة ما جعل الشيخ مصطفى عبد الرازق يرى أن هذه أهم خصائصه مستدلا بقول ابن القيم : واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق[٢] .

وهذا أيضاً هو الذى جعل مؤرخى الأخلاق يعتبرون التصوف الإسلامى علماً للأخلاق الدينية إذ جعلوا الفروض فضائل يلتزم بها كما جعلوا المحرمات رذائل وأمراضا نفسية يتوقى منها وتحتاج إلى علاج .

---

(١) دكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى المدخل إلى التصوف الإسلامى ص ١٥ ط ١٩٧٩م

(٢) الشيخ مصطفى عبد الرزاق تعليقه بدائرة المعارف الإسلامية المجلد الخامس ص ٢٨٠ وراجع دكتور محمد ضياء الدين الكردى نشأة التصوف الاسلامى : وراجع دكتور أبو العلا عفيفى الثورة الروحية فى الإسلام وراجع الدكتور محمد صبحى الفلسفة الأخلاقية ط دار المعارف ١٩٦٩ م .

• الحقيقة الخامسة : الدور التاريخي للتصوف الإسلامي :

وقفنا فيما تقدم على أن أساس الإسلام حسن الخُلق ، وهو مضمون ما نص عليه القرآن الكريم وسلوك الرسول — ﷺ — وأصحابه والتابعين .

وإذا شاع الإيمان والسلوك الطيب في الحياة امتلأت الدنيا هداية واصطلاحا وسعادة ، فالبذرة الصالحة في الحيـــاة الإنسانية هي بذرة التوحيد التي سمت بالروح وعمرت الوجدان وأزكت النفس بالامتثال للفضيلة وهدت عبر الأجيال إلى الحق والخير .

ومما ينبغي الوعي به حين نقرأ التصوف الإسلامي أن ندرك ماذا قدم هؤلاء القوم لمجتمعاتهم عبر مراحل التاريخ في الأقطار الإسلامية في القرنين الثالث والرابع الهجريين حيث يحدثنا التاريخ في هذه الفترة على سبيل المثال عن ذي النون المصري أحد مؤسسي التصوف والذي أحدث ضربا من الكلام لم يعرف قبله في مصر .. من الكلام في الأحوال والمقامات ، والحب الإلهي وأن مصادر المعرفة النقل والعقل وشيء آخر زاده هو الكشف ، وما تعرض له من جهاد وبلاء ، ومن ذلك الحين قوى السلوك الصوفي حتى كان له اليد الطولى في تعمير النفوس .

وجاء من بعده أبو الحسن الحمال الذي ذاع صيته ورأس طريق القوم ثم من بعده أبو الحسن الدينوري ثم أبو علي محمد بن الكاتب .

وفي الشام انتشر السلوك الصوفي عن طريق ذي النون المصري وأصحابه في مصر ، فظهر في الشام طاهر المقدسي سماه الشبلي حبر الشام كما ظهر مع المقدسي عمرو الدمشقي وأبو إسحاق الرقي وأبو بكر محمد الدقي .

وفي هذا العصر نما في العراق التصوف والسلوك الصوفي والدعوة إلى

الاهتمام بباطن النفس لا بالظواهر وحقيقة الشريعة، لا بمجرد أعمال الجوارح، ورياضة النفس عن طريق الزهد والعبادة والوصول إلى المعرفة عن طريق الوحي والإلهام، وإدراك العالم العلوي بالذوق والشعور لا بما يدركه العقل بالمنطق والتجارب والقياس[١].

ومن محققي الصوفية بالعراق الحارث المحاسبي، وسهل بن عبد الله التستري وأبو القاسم الجنيد وغير هؤلاء كثيرون ولا يتسع المقام للبيان.

وفي خراسان شقيق البلخي ومعروف الكرخي وحاتم الأصم وأحمد ابن خضرويه وأبو تراب النخشبي ويحيى بن معاذ الرازي وأبو يزيد البسطامي وأبو حفص النيسابوري وحمدون القصار.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد استحق هؤلاء القوم مكانة مرموقة في مجتمعاتهم لما قدموه من عطاء وخلق... لا يطلبون عليه جزاء ولا شكورا ويعلنون شفقتهم على بني البشر بما يجعل كل واحد منهم يعتقد أنه مسؤول عن كل الناس[٢].

ومن هذا المنطلق التف حول الطرق الصوفية والسلوك الصوفي صفوة الخلق الذين نصروا الله في أنفسهم فنصرهم الله على من عاداهم وكانوا

---

(١) دكتور أحمد أمين ظهر الإسلام حـ١ ص ١٦٦ وما بعدها وص١٧٥ وما بعدها وص ٢٢٦ وراجع طبقات الصوفية للسلمي والرسالة القشيرية

(٢) راجع دكتور/ محمد كمال جعفر من التراث الصوفي لسهل بن عبد الله التستري حـ٢ ص٢٣ وراجع الدكتور/ أحمد الطيب موقف أبي البركات البغدادي من الفلسفة المشائية ص٩ رسالة الدكتوراه بكلية أصول الدين استنسل، وراجع التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص١٤٥ حيث يذكر قصة أبي عثمان الرازي مع شيخه أبي حفص الحداد والتي توضح هذا المعنى وتشير إليه.

بسلوكهم الإيمانى قوة شع منها نور التوحيد ونشروا الإسلام فى آسيا وأفريقيا وفى بعض البلدان الأوربية من خلال سلوكهم وشيوخهم الذين هاجروا فى سبيل الدعوة لدين الله .

وملأت الدعوة الإسلامية آفاق السنغال ، ومالى ، والنيجر وغنيا وغانا ونيجيريا وتشاد ... حيث كانت الزوايا والرباطات التى أسسها شيوخ هذه الطرق منارات لنشر نور الإيمان والتوحيد بين الشعوب الوثنية فى غرب القارة الأفريقية وقلبها[١] .

ولذا كان إقبال الأفارقة على الدخول فى الإسلام نتيجة لجهود هذه الطرق الصوفية التى انتشرت فى القارة الأفريقية ، وأسس لمريدها زوايا ومراكز لنشر تعاليم الإسلام وتعليم لغة القرآن ، ليس هذا فحسب ، بل كانت مصابيح الطرق الصوفية فى طليعة المجاهدين ضد البرتغاليين والأسبان ، وثورة المجاهد عمر المختار ومريدوه ضد الاستعمار الإيطالى فى ليبيا خير شاهد على دور الزوايا والسلوك الصوفى فى رد أعداء الإسلام والمسلمين ، كما كان لهم الدور الإيجابى فى المحافظة على لغة القرآن فى بلاد المغرب العربى من خلال الزوايا المنتشرة فيها بعدما حاول الغزو الأوربى أن يسلخ هذه البلاد عن عقيدتها وثقافتها ... عن طريق الإرساليات والمراكز الثقافية التى أقامتها بهدف إلحاق البلاد الإسلامية بالمغرب دينيا وثقافيا[٢] .

هذه هى بعض بصمات الطرق الصوفية والسلوك الصوفى كما يحدثنا التاريخ والتى ينبغى أن تحتذى فى تنمية وعى الأمة .

---

(١) دكتور عبد الرحمن بدوى تاريخ التصوف الإسلامى ص ٢٥ ط ١٩٧٥م .

(٢) دكتور عبد الرحمن بدوى المرجع السابق ط الكويت ١٩٧٥م .

وهذا أبو الفرج بن الجوزى الذى لم يعرف التاريخ قبله من خاصم الصوفية بتلك الكيفية العنيفة التى يدركها كل من قرأ كتابه المسمى «تلبيس إبليس» يقول: وهذا الاسم - أى التصوف - ظهر للقوم قبل سنة مائتين، ولما أظهره أوائلهم، تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس، ومجاهدة الطبع، بردة عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الكريمة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق.. إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التى تكسب المدائح فى الدنيا والثواب فى الآخرة، فقد دعا ابن الجوزى إلى أن التصوف هو الخلق بالتخلق بالأخلاق الطيبة حيث يقول سمعت أبا بكر ابن المناقب يقول: سألت الجنيد بن محمد عن التصوف، فقال: الخروج عن كل خلق ردىء، والدخول فى كل خلق سنى»[1] وليس هذا الفهم الذى وقفنا عليه مفروضا على التصوف الإسلامى أو غريبا عنه بل هو روح الإسلام، وهذه الروح روح خلقية، وهدف الإسلام فى الحياة التصوف الإسلامى، ومصداق هذا قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - «الدين حسن الخلق»[2] ويؤيد ذلك قول الرسول أيضا: إن أحسن الناس خلقا أحسنهم دينا»[3] وقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[4]، فقد جعل الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أهم أهداف رسالته الأخلاق وإذا كان التصوف توجها عمليا وتصفية دائمة وذلك بالمجاهدة للنفس

---

(١) أبو الفرج بن الجوز تلبيس إبليس ص١٥٨

(٢) المرجع السابق وراجع إحياء علوم الدين الإمام الغزالى ج٣ ص ٥٠ ط الحلبى ١٩٣٩ م

(٣) منتخب كنز العمال هامش مسند الإمام أحمد ج١ ص ١٣٢

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج٢ ص ١٨١ ومسند البيهقى ج١ ص ١٩٢ كتاب الشهادات.

والرياضة للقلب، وإذا كانت الرحلة الصوفية تخلقا فتذوقا فتحققا، فإن غاية هذه المراحل المتعاقبة والتى يترتب بعضها على بعض هى حصول المعرفة .

كما يقول ابن عطاء الله السكندرى «إن بداية السالك طلب المعرفة، ونهاية غايته توحيد الذات والصفة لأن معرفة الله غاية الغايات، وتوحيده أجل وأكمل النهايات، والعلم به يفيد ذات الذاكر بيانا وتحقيقا، والعمل بمقتضاه يزيد فى صفات السائر برهانا وتوفيقا»[1] .

وبهذا يتضح أثر التصوف الإسلامى فى تحقيق سلوك الفطرة والتوحيد وأن التصوف الإسلامى علم الأخلاق الإسلامية، وأزمة الأمة أزمة أخلاق وتتمثل فى قضية سوء الفهم وقضية الأدعياء الذين نصبوا أنفسهم بعيداً عن مقتضيات عقيدة الفطرة والتوحيد . وقراءة التراث الصوفى فى ضوء ما تقدم تؤكد أن هذا السلوك القائم على الوعى الإيمانى وجد فيه عامة البشر طريقا للخلاص من الاضطراب الذى كانت تموج به الحياة !!! حيث استثمر كل منهم الطريق الصوفى لمعالجة الخطر الأكبر الذى يهدد حياة الإنسان، إنه النفس التى بين جنبينا !! .

أجل فالنفس الإنسانية التى لم تقترن مع العمل الصالح فى سير منضبط على المنهج الإسلامى الصحيح، هى الخطر الأكبر فى حياة المسلمين اليوم، ما فى ذلك شك ولا ريب . ذلك أن الإسلام فى جوهره ليس إلا تهذيبا وتربية للنفس، كى تتخلى عما تتسم به عادة من الأنانية والكبرياء والتعلق بزخرف هذه الحياة الدنيا، ثم تدخل فى محراب العبودية لله تعالى طوعا كما انطبعت بحقيقتها قسرا، فعندئذ يصبح السلوك ثمرة من ثمرات عبودية

(١) دكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى مدخل إلى التصوف الإسلامى. وراجع دائرة المعارف الإسلامية حـ ٥ ص ٢٨٤

النفس لله ويكون واقع كل منهما تصديقا للآخر ، إذ تستقر المحبة الأخوية الصادقة فى مكان الأنانية البغيضة ، وتخضع النفس لقانون العبودية لله بدلا من الكبرياء الزائفة على الخالق وتستيقن معنى هذه الحياة التى ليست فى حقيقتها إلا جسرا للحياة الخالدة الأخرى فلا تتعلق من الدنيا بشىء ولا تأخذ من خيرها ونعيمها إلا ما يكون عونا لها على السير فى صراط الإسلام وتحقيق مرضاة الله عز وجل ، فيتم من ذلك الانسجام المطلوب بين حقيقة هذه النفس المسلمة والسلوك الإسلامى الذى يشيع فى تلاق وتعاون بين المسلمين ويحقق الوعى الإيمانى لحقيقة السلوك المبنى على الفطرة والتوحيد .

ومن هنا فلا مانع أن يبحث هؤلاء وأولئك عن وسائل إيقاظ الوعى الإيمانى خصوصا إذا جاءت اللحظة التى يدرك فيها الإنسان أنه على الرغم من اعتداده بانتصار العلم ، وأن العلم قد حقق له المتعة المادية ووفر له الوقت والجهد بما يقدم من آلات ومخترعات ومكتشفات ....

على الرغم من كل ذلك فإن العلم فى الوقت نفسه قد أوصله إلى أسلحة فتاكة مدمرة يمكن أن تقضى فى غمضة عين على كل ما بناه الإنسان وشيده فى الجانب المادى فى هذه اللحظة التى يرتقبها سيعلم الإنسان أن العلم وإن كان قد أعطى باليمين فإنه يهدد هذا العطاء بما تحمله الشمال .

لعل ذلك هو سبب النتيجة التى وصلت بإنسان العصر إلى أن يكون مأزوما ، مترددا ، منقبضا .

وبنظرة إلى الواقع الذى تمر به الإنسانية يدرك الإنسان أن غيبة الوعى الإيمانى تكمن فى تفجير الطاقة العقلية الكامنة فيه وأنه أهمل وتناسى الطاقة الروحية فيه ، وتلك هى أزمة إنسان اليوم !!

وإذا كانت الأمة الإسلامية تواجه فى هذا العصر تحديات خطيرة ،

فإن من أهم المعالم التى تمكن الأمة من المواجهة هى التصوف الإسلامى ومشايخ الطرق الصوفية لما لهم من قدم راسخة فى توجيه المريدين ونشر القيم الهادفة التى تمكن الأمة من الاعتماد على الثوابت فى الإسلام، مما يجعل الأمة تنطلق بغير هيابة ولا وجلة.

وهذا يدعونا للوقوف على معالم السلوك فى التصوف الإسلامى.

معالم السلوك فى التصوف الإسلامى :

إن السلوك هو الطريق الأقوم والانتقال من منزل عبادة إلى منزل عبادة بالمعنى، وانتقال بالصورة من عمل مشروع على طريق القربة من الله إلى عمل مشروع بطريق القربة إلى الله بفعل وترك... وانتقال بالعلم من مقام إلى مقام... ومن تجل إلى تجل ومن نفس إلى نفس، والمنتقل هو السالك(1).

والسالك فى الطريق الصوفى هو المريد الذى تاب عن هوى نفسه وشهواتها، واستقام فى طريق الحق بالمجاهدة والإخلاص والصدق والعدل، كما يقول أئمة السلوك الصوفى: هو الذى مشى على المقامات بحاله لا بعلمه، فكأن العلم بالنسبة له عين(2). تقوم على تهذيب الأخلاق

---

(1) والسلوك يعنى السيرة والمذهب والاتجاه تقول فلان حسن السلوك أو سىء السلوك راجع دكتور جميل صليبا المعجم الفلسفى ح١ ص٦٧١ ط دار الكتاب اللبنانى وراجع دكتورة سعاد الحكيم المعجم الصوفى ص٥٨٠ ط الأولى ١٩٨١ م.

(2) الإمام ابن عربى فى رسائله ح٢ ص٢ نقلا عن الدكتور أحمد السايح السلوك عند الحكيم الترمذى ومصادره من الكتاب والسنة ص٢٠١ ط ١٩٨٦ م وراجع دكتور سامى حجازى محاضرات فى التصوف والأخلاق.

والسلوك والأعمال والمعارف عن طريق الاشتغال بعمارة الظاهر والباطن:
كما عرف الإمام الغزالي السلوك بأنه تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف عن طريق الاشتغال بعمارة الظاهر والباطن[1].

والسالك من سلك وقد وردت في قول الله تعالى « الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا»[2] كما يقال : سلك الطريق يسلك سلوكا أي دخل وحل فيها .

والطريق بمعنى السلوك قال تعالى «مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم»[3] .

إن لفظ الطريق في السلوك الصوفي يختصر جملة — الطريق إلى الله — لذلك كان من الشمول بحيث يندرج تحته التجربة الصوفية بكاملها. ابتداء من تنبيه القلب من غفلته ... مروراً بمجاهدة النفس ورياضتها وصولا إلى تنمية النشاط الروحي وتفتح فعاليته[4] ، وما ذلك إلا لأن منزلة السلوك في التصوف الإسلامي تقوم على تجلية العرفان في طبيعة الإنسان وتعاون الظاهر والباطن، أو ارتباط الأعمال البدنية الخارجية بالاهتمامات النفسية الداخلية وبهذه الطريقة تتكامل النفس حتى يتم عمارة الظاهر والباطن ، ويظهر وينمو من داخل هذا النشاط الشامل جملة مصطلحات تشكل قيم السلوك العملي في التصوف الإسلامي .

---

(١) الإمام الغزالي الروضة الندية من فوائد اللآلىء ص١٣٨ ط السعادة بالقاهرة ١٩٢٤ م .

(٢) سورة طه جزء من الآية ٥٣

(٣) سورة الأحقاف آية ٣٠

(٤) راجع دكتورة سعاد الحكيم المرجع السابق ص ٧٢١

ومن هنا يتضح المراد من السلوك فى التصوف الإسلامى وأنه عمل يستهدف غرضا وهدفا وليس سلوكا من النوع الساكن ، ولذا يقول الحكيم الترمذى «أعلم أن الناس مذ خلقهم الله مكلفون ، ومنذ أخرجهم من العدم إلى الوجود لم يزالوا مسافرين ، وليس لهم حط عن رحالهم إلا فى الجنة أو النار وكل جنة أو نار بحسب أهلها[١] .

كما يقول فى كيفية السلوك إلى رب العالمين «أن الطرق شتى وطريق القوم مفردة ، والسالكون طريق الحق أفراد ، ومع أن طريق الحق مفردة ، فإنه تختلف وجوهه باختلاف أحوال سالكيها من اعتدال المزاج وانحرافه ، وملازمة الباعث ، وقوة روحانيته وضعفها ، واستقامة همته وميلها وصحة توجهه وسقمه[٢] ولذا يميز أئمة السلوك الصوفى بين ثلاثة أنواع من السلوك هى :

أنواع السلوك ومراتبه :

أولا : السلوك الطبيعى : وهو مجرد التغير وذلك كانخراق الماء إذا وقف الإنسان عليه بجسمه»[٣] ،

ثانيا : السلوك الاضطرارى : وهو الفعل الآلى ، وذلك كالتنفس ، وهذا الفعل فى الواقع ليس إلا سلوكا آليا لا إرادة ولا تخطيط فيه ، فلو قصد إنسان عين آخر بإبرة أغمض عينه على الفور اضطرارا ، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر[٤] وهكذا النبض .

---

(١) الحكيم الترمذى رسالة كيفية السلوك إلى رب العالمين ص ١٤٧ مخطوط نقلا عن رسالة الدكتوراه الأستاذ الدكتور أحمد السايح السلوك عند الحكيم الترمذى ومصادره من السنة النبوية ص ٢٠٤ مخطوط بكلية أصول الدين — القاهرة . (٢) المرجع السابق .

(٣) الإمام الغزالى إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٢٤٨ ط الحلبى ١٩٣٩م .

(٤) الإمام الغزالى المرجع السابق ص ٢٤٨

ثالثا : السلوك العقلى الإرادى :

وذلك كتناول الطعام والمشى والنطق ... والفرق بين السلوك الاضطرارى والإرادى أن الأول يصدر عن الإنسان دون سابق إرادة أو علم ودون قدرة على رده أما السلوك الاختيارى فإنه يصدر بعد سابق معرفة واختيار .

ونلاحظ أن النوع الإضطرارى من السلوك يكاد يتفق فيه الإنسان والحيوان بينما السلوك الإرادى من مميزات الإنسان[1] .

وعلى هذا فالسلوك الإنسانى على اختلاف أنماطه ، وتباين أغراضه وأوصافه يعتبر سلسلة من العمليات المتتابعة المتتالية ، وبشكل يجعل من مجموعها صبغة فعلية واحدة تؤدى غرضا وهدفا بعد أن تتجسد حقيقة سلوكية .

فالفعل — أى فعل يقوم به الإنسان — يمر بمراحل متعددة تبدأ من داخل الذات الإنسانية وتنتهى إلى خارجها ، وحتى تكتمل عناصر وجوده النفسى ، والفكرى ليتخذ مرحلة السلوك الفعلى فى الحياة ، ويقوم على أعمال الإنسان الإرادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة[2] كما أشرنا إلى هذا فى السلوك العقلى الإرادى كما بين هذا أئمـــة السلوك الصوفى والكلام كالإمام الغزالى حيث بين أن اليد تعمل بالقدرة ، وأن القدرة تعمل بالإرادة ، والإرادة تنبعث بالعلم[3] كما أن السلوك الإنسانى على مستويين :

---

(١) راجع دكتور أحمد عبد الحميد أحمد الفكر التربوى الإسلامى ومناهجه بين الفلاسفة والصوفيين ص ٣٧ ط ١٩٨٠ م .

(٢) الدكتور منصور رجب تأملات فى فلسفة الأخلاق ص ١٨٠ ط الأنجلو بالقاهرة .

(٣) الإمام الغزالى المرجع السابق .

مراتب السلوك وسماته :

الأول : مستوى يقترب فيه الإنسان من باقى الكائنات الحية .

والثانى : مستوى آخر يحقق فيه قيمه العليا، ويقترب فيه من السلوك الملائكى ، ويتميز المستوى الأول بتحكم الدوافع والعوامل الذاتية الاندفاعية ، بينما يتميز السلوك الثانى بتحكم الإرادة وقوة العقل ، ومن هنا كان اختلاف السلوك ، حيث يختلف السلوك من فرد لآخر فالمؤثر الذى يستجيب له شخص قد لا يستجيب له آخر لأن إدراك النفس إنما يكون مع صفاتها وهيئاتها لا منفصلة عنهـا . وهيئاتها لا تتماثل ، ولو تماثلت لاشتبه علينا زيد بعمرو[1] .

ولاشك أن أئمة السلوك الصوفى الأولين قد طفقوا منذ فجر الإسلام يتأملون فى المثل القرآنية العليا ليتخذوا منها نبراسا يضيئون به أعماق قلوبهم ليستكشفوا فى داخلها عناصر الأحوال الروحية التى شاهدوها ممثلة فى نبيهم بعد أن ظفرت بالرضا الإلهى العميم[2] .

ومما لا سبيل إلى الريب فيه أن أئمة السلوك الصوفى قد ربطوا السلوك بالوجدان حيث يصحب السلوك الإنسانى بدوافعه وإدراكاته حالة من الارتياح أو عدم الارتياح ومن اللذة إلى الألم ، عن طريق المقامات العملية ومنازل السلوك الخلقية ، وذلك لأن كل مقـام يصحبه حالات شعورية وجدانية كالشعور بالندم الذى يصحب التوبة وهكذا تبدو الحقيقة الوجدانية ضرورية فى السلوك ومرافقة للحالات النفسية المتعددة.

---

(١) دكتور أحمد عبد الرحيم السايح المرجع السابق ص ٣٨

(٢) راجع دكتور محمد غلاب التنسك الإسلامى ص ٣٧ ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ولذا كان الطريق الخلقي الصوفي من الشمول ، ما يندرج تحته السلوك الصوفي بكامله كما تبين فيما سبق ابتداء من تنبيه القلب من غفلته مروراً بمجاهدة النفس ورياضتها لأنها المدخل الوحيد لتزكية النفس ، وصولا إلى التحقق بالخلق والسلوك بشقيه العلمي والعملي .

وعلى ذلك فجميع الفضائل تندرج كلها تحت الرياضة والمجاهدة المبنى عليها الطريق الخلقي الصوفي ، والذي يسلكه المريد في بداية دخوله الطريق وبهذا يبدأ في الترقي الخلقي حينما يأخذ نفسه بالمجاهدة والسير في سلم الطريق الصوفي بالإرادة الذاتية ، ويراقبه في هذا شيخه ويرشده بما يحقق له الارتقاء وقطع عقبات النفس بالتخلي والتحلي القائم على صحة الاقتداء وتزكية النفس .

وهذا ما دعا أحد الباحثين إلى القول: بأن المجاهـــدة تمثل الجانب الخلقي في حياة الصوفية وهي تتمثل في إيثار ما لله على ما للنفس وطلب مرضاته تعالى على الاستجابة لأهواء الذات ونزواتها ، وهي محاولة للتخلص من الصفات القبيحة ومحاسبة النفس على آثامها ، لأنها تبدأ بالتوبة التي تحرر السالك إلى الله من قيود الشهوات ومغريات الرغبات حتى يفطم نفسه عن المألوفات ، ويصرفها حتى عن المباحات[1] .

وعلى هـذا كان سلم المقامات الخلقية ومنازل السلوك العملية فريداً جوهره كما هو سام في تدرجه ، وهـذا ما جعل الاتجاه الخلقي الصوفي اتجاهاً فريداً في بابه متميزاً عن غيره من الاتجاهات الفلسفية الأخرى لأنه قائم على معاملة الله وحده»[2] .

(١) دكتور توفيق الطويل فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها صـ ١٦٧ ط ١٩٧٩ م .

(٢) دكتور أبو العلا عفيفي التصوف الثورة الروحية في الإسلام صـ ١٤٣ بتصرف يسير .

ولذا يتضح أن من شأن هذه المقامات الخلقية ومنازل السلوك العملية أن تجعل السالك مشغول القلب بالله تبارك وتعالى دائم الذكر له ، مطيلا القيام بين يديه ، متنعما بعز الطاعة له ، شاعرا بالثقة والأمن واليقين فى رحابه ، وهو حينئـــذ كما يقول القشيرى « عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله[1] .

أى أن السالك الصوفى يبدأ رحلته فى هـذا الطريق الخلقى بمجاهدة نفسه للقرب من الله تبارك وتعالى بالارتقاء فى سلم الخلق والسلوك الأمر الذى من أجله قرر أحد الباحثين : أن هـذه المقامات السبع كما هى لدى أصحاب الاتجاه الخلقى الصوفى جماع التربية الخلقية[2] حيث يبدأ السالك درجات الطريق بالتوبة بمعناها العام الشامل وكأنها نهر يتطهر فيه السالك حتى يعم ماء الطهارة ظاهره وباطنه ، فيتوب من الذنوب ثم من الغفلة كما تبين فيما سبق حتى يصل إلى أعلى درجات التوبة أى أنه يبذل جهـــدا مستمرا فى تزكية نفسه وتطهير قلبه مما ران عليه من الذنوب والآثام فى مقام التوبة وهكذا يظل على حذر من الشبهات إن رابه شىء تركه كما روى عن أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — قال : كنا نترك سبعين بابا من الحلال مخافة باب واحد من الحرام[3] . أى مخافة الوقوع فى باب واحد من الحرام . وذلك هو مقام الورع حيث الخروج من كل خلق وسلوك فيه شبهة ومحاسبة النفس فى كل لحظة .

---

(١) الإمام القشيرى الرسالة القشيرية جـ٢ صـ٦٢٣

(٢) راجع نيكلسون الصوفية فى الإسلام صـ ٢٣ ترجمة نور الدين شريبه ط ١٩٥١ م .

(٣) أبو طالب المكى قوت القلوب جـ ٢ صـ٢٩٦

ومن هنا فإن السلوك الصوفى الطريق يؤكد تخلل المقامات العملية ومنازل السلوك الخلقية الحياة التى تقترن بالطاعة فى سلوك السالك إنطلاقاً من إدراكه لمسئوليته أمام الله فيسلك الطريق إليه بما ينبغى أن يكون حتى لا يكون لأحد قبله مظلمة ولا دعوى ولا طلب »[1] .

وهذا مما يوضح اهتمام أصحاب الاتجاه الخلقى الصوفى بمراتب السلوك العملية ومنازله الخلقية ، وهذا ينصب على النفس وعلاقتها بالله من جانب وعنايتها أيضاً بالأخلاق والسلوك الذى ينبغى أن تتحقق فى علاقتهم بالآخرين من جانب آخر ، وأيضاً كان مقام الزهد أول قدم القاصدين إلى الله فمن لم يحكم أساسه بالزهد لا يصح له شىء بعده ، إذ ليس الزهد فى مجرد خلو القلب مما خلت منه البطن . فلا يتعلق قلبه بشىء من أمور الدنيا لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ومن ثم كان مقام الزهد ليس فى علاقة السالك بمتع الحياة وشهوات النفس فحسب ولكنه يحدد علاقته بالغير إذ من أسسه إيثار الغير على النفس عند الحاجة[2] ومصداق ذلك قول الله تبارك وتعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[3] .

ومن هنا كان لمقام الزهد معان خلقية عديدة حيث إنه يعنى عدم تعلق القلب وسكونه أمام مغريات الدنيا وهنا يتضح معنى الإيثار للغير عند الحاجة[4] بل إن هذا الإيثار لا يتوقف عند الإنسان بل يتعدى ذلك إلى الحيوان وما ذلك إلا لكمال الخلق والسلوك وتحقيق مقتضياته لديهم[5] وذلك لأنهم زهدوا فى الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى ،

---

(١) أبو نصر السراج الطوسى اللمع ص ٢٠

(٢) راجع دكتور أحمد محمود الفلسفة الأخلاقية ص ٢٩٣ بتصرف

(٣) سورة الحشر جزء من الآية ٩ (٤) المرجع السابق

(٥) الإمام القشيرى الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٠٦

فبالتقوى زكت نفوسهم وبالزهد صفت قلوبهم ، فلما هدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد تفتحت مسام بواطنهم ، وسمعت آذان قلوبهم ، وأعانهم على ذلك زهدهم فى الدنيا[1] .

وتهذيبهم وتأديبهم ، عاملان فى تنمية أخلاقهم وتزكية نفوسهم المؤدية إلى تزكية سلوكهم ، فالسالك يترقى على الأسماء الحسنى ، فإن كانت من صفات القهر خضع لها وخشع ، وإن كانت من صفات الرحمة تاب وأناب . . . ، وإن كانت من صفات الجمال تأدب بها وتهذب ، وإن كانت من صفات الجلال تعزز بها وتهيب ، وهكذا ينتقل السالك بين أسماء الله الحسنى ، كلما تعرف على اسم منها ترقى بما يتناسب مع هذا الاسم فيكون لذكره به بعد ذلك أنوار تخترق من الحجب إلى الله بقدر منزلة صاحبها فى ملك هذا الاسم ومعرفته به[2] .

كما تحقق أصحاب الاتجاه الخلقى الصوفى فى هذا بأخلاق الرسول — ﷺ — القدوة الكمال البشرى ، ولذا فالفترة التى سعدت فيها الأرض بالوجود المحمدى بعد الرسالة كانت فترة البناء الخلقى الكامل على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة[3] .

وهذا ما يقف عليه الباحث لحياة الصوفية الخلقية حيث يرى أن حياتهم تقوم على ألوان من الرياضات والمجاهدات كل بالطريقة التى يراها موصلة إلى الغاية التى من أجلها امتثل للطريق الخلقى واختار هذا المنهج أو ذاك .

---

(١) السهروردى عوارف المعارف جـ ١ صـ ١٤٦ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور ابن الشريف .

(٢) دكتور عبد الفتاح عبد الله بركة فى التصوف والأخلاق صـ ١٨٨ ط ١٩٨٣ م

(٣) دكتور محمد كمال جعفر فى الفلسفة والأخلاق صـ ٢٤١

وعلى هذا فليس التصوف كما هو فى ينابيعه ومصادره علما يأخذه المريد على يد الشيخ المرشد فحسب ، ولا هو علم بالأوامر واجتناب النواهى الدينيـــة فقط ، ولكنه علم وعمل وعرفان ، ولذا يسمى بعلم الأخلاق وعلم التصوف وهو التخلق بالأخلاق الإلهية[1] ، وهذا هو الطريق الذى قاموا عليه وسر شموله للمعانى الخلقيـــة النظرية والعملية وما يترتب عليها من ثمرات روحية قد وجدت مادتها فى القرآن الكريم فى الجانب الأول ، والثانى فى حياة الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى أخلاقه العملية وتوجيهاته النبوية .

ومن كل هذا ينفرد الاتجاه الخلقى الصوفى فى جانبه العملى بالسمات التالية :

— التخلى والتحلى بالرياضة والمجاهدة .

— التدرج فى سلم الارتقاء الخلقى .

— التخلق بأخلاق الله تعالى .

— الثبات والتمكين القائم على التبصير والفهم والروحية .

وبذلك تتضح القيمة الخلقية والسلوكية للاتجاه الخلقى الصوفى فى بناء الخلق والسلوك للفرد والمجتمع ، حيث تصور لنا المقامات العملية ومنازل السلوك الخلقية فهم الصوفيـــة لقيمة الحياة الخلقية وأهميتها فى تنقية السالك وتهذيبه بالعلم والعمل أى بالخلق والسلوك القائم حول فطرة التوحيد والمؤدى إلى العرفان والذى هو قمة هذه الجهود العملية التى يبذلها السالك خلال المقامات العملية ومنازل السلوك الخلقية .

---

(١) الشيخ على بن على التهانوى موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون جـ ٤ ص ٨٣٠

وعلى هذا فأصحاب السلوك الصوفي أطباء القلوب، وأصحاب النفوس العالية الطاهرة المطهرة، يؤثرون في المريدين بما منحهم الله من تقوى وطاعة وبركة . وكما يقول الدكتور عبد الحليم محمود — رضى الله عنه — ولابد في التصوف من شرط جوهــــرى هو التأثير الروحى « أو بتعبير أدق « البركة ، وهي لا تتأتى إلا بواسطة شيخ : ومن هنا كانت الطرق ، ومن هنــا كانت السلسلة .

وهل السلسلة إلا بركات تنقل من شيخ إلى مريد يصبح شيخاً، فيؤثر بدوره في مريديه أو مريدين .. ؟

ولذا فالسلوك الصوفي — كما تبين فيما تقدم — ليس عملا علمياً فقط ، ولا بحثاً نظرياً فقط ، أى أنه لا يتعلم بواسطة الكتب والمؤلفات على الطريقة المدرسية، بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم إلا كحافز مقو للتأمل ، والإنسان لا يصير بمجرد قراءته متصوفاً ، على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلا لفهمه ، ولأجل أن يسير الإنسان في طريق السلوك الصوفي لابد له من سمات — بالإضافة إلى ماتبين فيما تقدم — وتتمثل فيما يلى :

١ — استعداد فطرى خاص لا يغنى عنه اجتهاد أو كسب .

٢ — الانتساب إلى — سلسلة — صحيحة ، إذ أن البركة التي تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحــــة ، هي الشرط الأساسى الذى لا يصل الإنسان بدونه إلى أى درجة من درجات السلوك الصوفي حتى البدائية منها .

٣ — التلقى عن القدوة في الجهاد الأكبر ، بالتأمل الروحى القائم على استحضار عظمة الله في كل ما يأتى وما يدع ، وفي تركيز الذهن في الملأ الأعلى ، فيصل موفقاً من منزل عبادة إلى منزل عبادة ، حتى يصل إلى أعلى

المنازل التى أعدها الله للمتقين ، وهى حالة تسمو على حـــدود الوجود المؤقت فيصبح ربانيا ، ذلك هو السلوك الصوفى الحقيق[1] الموصـل إلى تنمية وعى الأمة ويقظتها ، قال تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »[2] .

وهكذا تمتزج الحياة الصوفية الحقة بالأخلاق فى جميع مراحلها وفى سائر جوانبها ، وهذه هى الأسس العلمية التى بنيت عليها الأخلاق الإسلامية بعامة والأخلاق الصوفية بخاصة ، حيث تقوم كما تقدم على العلاقة بين الشيخ والمريد ، واشتمال الطريق الخلقى الصوفى عليها مع المنازل الخلقية والمراتب السلوكية .

وبهذا نكون قد وقفنا على معالم البناء الموضوعى للاتجاه الخلقى الصوفى وأثره فى بناء الفرد والمجتمع . وأن أمتنا وهى تخطو على مجـــد الأسلاف وتستيقظ من ثباتها وتفيق من نومها وتلتفت حولها فتجد الأعداء يتربصون بها ويخططون فى دأب ومكر وخبث يريدون أن يقضوا على هذه الأمة التى برزت إلى الوجود لتكون خير أمة أخرجت للناس .

إن أمتنا فى هذا الزمان أحوج ما تكون إلى إيقاظ معالمها الصوفية التى تعمل على تحصينها وبناء شخصيتها والأخذ بها إلى مواجهة الأحباب والأعداء كما أنه وقد لا يخفى على أحد أن المعالم والقيم الإسلامية التى بنى عليها السلوك الصوفى تمكن الأمة من استثمارها لديها فى مواجهة التخلف والجمود .... وحسب الأمة ما جاء به علماء التصوف الإسلامى من معالم

---

(١) راجع الإمام الغزالى — المنقذ من الضلال — تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٠٦ بتصرف ط ١٩٦٨ م

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٢

أنارت الطريق ووضعت العلامات المضيئة للسائرين والسالكين إلى الصراط المستقيم .

وهذا عين ما ذكره الله تبارك وتعالى فيهم « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار »[1] .

وقوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون »[2] .

نسأل الله تعالى أن يكتب التوفيق والسداد للقائمين والعاملين على إيقاظ المجد الصوفى للأمة . وأن يهيء للسلوك الصوفى سبيل تحريره ، وتطهيره من الدخن الذى أثير حوله سواء من داخل الجماعة الإسلامية أو من المؤثرات الخارجية ، الأمر الذى يؤكد الحاجة إلى دوام التطهير لتنقية الفطرة مما لحقها من شوائب المخالفات والمغالطات ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم وسلك طريقهم إلى يوم الدين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة النور الآية ٣٦

(٢) سورة السجدة الآية ١٦

المراجع والمصادر

• القرآن الكريم

• دكتور إبراهيم بيومى مدكور فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق ط دار المعارف بالقاهرة

• الإمام ابن عربى فى رسائله

• الإمام أبو طالب المكى قوت القلوب وحياة القلوب بهامش إحياء علوم الدين ط دار صادر ١٣٠٦هـ

• دكتور أبو العلا عفيفى التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ط الأولى ١٩٦٣م

• الإمام أبو الفرج بن الجـــوزى تلبيس ابليس ط مكتبة نهضة بالقاهرة

• الإمام أبو القاسم القشيرى الرسالة القشيرية تحقيق الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود - رضى الله عنه - والدكتور محمود بن الشريف ط دار حسان ١٩٧٢م

• الإمام أبو النصر عبدالله بن على السراج الطوسى اللمـــع تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود - رضى الله عنه - والأستاذ طه عبد الباقى سرور ١٩٦٠ م

• الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى المدخل إلى التصوف الإسلامى ط ١٩٧٩ م

• الأستاذ أحمد أمين ظهر الإسلام ط الثانية ١٩٦٦م

• دكتور أحمـــد عبد الحميد الفكر التربوى ومناهجه بين الفلاسفة والصوفيين ط ١٩٨٠ م

• دكتور أحمد الطيب موقف أبي البركات البغدادي من الفلسفة رسالة بكلية أصول الدين — القاهرة

• دكتور أحمد محمود صبحي الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ط دار المعارف بمصر ١٩٦٩م

• السهراوردي عوارف المعارف تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور ابن الشريف

• الحكيم الترمذي كيفية السلوك إلى رب العالمين تحقيق الدكتور أحمد عبد الرحيم ط الدار المصرية اللبنانية

• الإمام الغزالي ميزان العمل ط مكتبة الجندي بالقاهرة ١٩٧٣م

• « « إحياء علوم الدين ط الحلبي ١٩٣٩م

• « « الروضة الندية من فوائد اللآلي ط السعادة بالقاهرة ١٩٢٤م

• الامام الغزالي المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود مع أبحاث في التصوف ط ١٩٦٨ م

• الأستاذ جعفر الهادي في مؤلفه الله خالق الكون دراسة علمية للمناهج والنظريات المختلفة حول نشأة الكون ومسألة الخالق ط ١٤٠٠ هـ

• الدكتور جميل صليبيا المعجم الفلسفي ج ١، ج ٢ ط دار الكتاب اللبناني بالقاهرة ١٩٨٢ م

• الدكتور حسن الشرقاوي الشريعة والحقيقة ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٦ م

• الدكتور توفيق الطويل فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها ط الرابعة ١٩٧٩ م

• الدكتورة سعاد الحكيم المعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة ط الأولى بيروت ١٩٨١ م

• العلامة سعد الدين التفتازاني شرح العقائد النسفية ط باكستان مكتبة خير كثير

• الدكتور محمد ضياء الدين الكردي نشأة التصوف الإسلامي ط ١٩٨١ م

• العلامة عبد الرحمن بن الجوزي صيد الخاطر ضبط وتحقيق الشيخ محمد الغزالي ط الثانية ١٩٨٨م

• الدكتور عبد الرحمن بدوي تاريخ التصوف الإسلامي ط ١٩٧٥م

• الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة في التصوف والأخلاق ط الأولى ١٩٨٣ م

• الدكتور محمد عبدالله دراز كتاب الدين ط السعادة ١٩٦٢م

• الأستاذ محمد عبد القادر العماوي هذا هو الإسلام ط الثالثة ١٩٧٣م

• العلامة محمد على التهانوي موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون

• الدكتور محمد غلاب التنسك الإسلامي ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة

• دكتور محمد كمال جعفر في الفلسفة والأخلاق ط ١٩٨٠م

• دكتور محمد كمال جعفر من التراث الصوفي لسهل بن عبدالله التسترى ط المعارف ١٩٧٤م

• الدكتور مصطفى عبد الرازق تعليقه على دائرة المعارف الإسلامية المجلد الخامس

* الدكتور مقداد يلجن الحياة الروحية فى الإسلام ط دار الشروق ١٩٨٥ م

* دكتور منصور رجب تأملات فى فلسفة الأخلاق ط الأنجلو المصرية ط الثالثة ١٩٦١ م

* نيكلسون الصوفية فى الإسلام ترجمة نور الدين شريبه ط ١٩٥١ م

فهرس الموضوعات

